213

الأبحاث والدراسات

ملامح من تاريخ الإسلام في أفريقيا (*)

أ. د. السر سيد أحمد العراقي

أ. د. غيثان بن علي بن جريس

(*) دراسة منشورة في كتاب: تاريخ الأقليات الإسلامية في العالم (الجزء الأول) (أفريقيا)، (الطبعة الثانية) (١٤١٩هـ/١٩٩٩م). ص ص ١١ – ٤٠ .

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــــد :

ملامح من تاريخ الإسلام في إفريقيا

لقد غطى الإسـلام ، منـذ فجـر ظهـوره ، المنطقـة الممتـدة مـن مصـر إلى بـلاد السوس الأقصى ، وبلاد الحبشة ومنطقة القرن الإفريقي على طول الساحل الشـرقي ، وعبر إلى إفريقيا جنوب الصحراء في العصور الوسطى ، وهي منطقة الحـزام السـوداني الممتد مـن بـاب المنـدب والبحـر الأحمـر وجيبوتـي في المحيـط الهنـدي ، أو مـن سـاحل الصومـال إلى سـاحل السـنغال وجـزر الـرأس الأخضـر في المحيـط الأطلسـي • وبـلاد السودان تسمية أطلقها المؤرخـون والجغرافيـون العـرب علـى سـكان غربـي إفريقيـة بصفة خاصة ، وهناك بلاد النوبة وأرض الزنج ••••

وفي العصور الحديثة اخترق الإسلام نطـاق الغابـات وهضبـة البحـيرات وتوغـل حتى جنوبي القارة ، رغم محاولات المستعمرين الشرسة وقف هذا التقـدم • فالإسـلام الذي دخل القارة منذ وقت مبكر ، شـكل عـادات السـكان وطـور أحوالهـم ، ورغـم ذلك فإن هناك كثير من الأفكار الخاطئة المنتشرة في العديد من الكتب المنهجية وغيرها حول التاريخ الإفريقي • فكثيراً ما نقرأ بأن إفريقيا ليست لها تاريخ • وهذا الزعم – إن قبلناه – معناه تجريد إفريقيا من أية مساهمة في حضارة الإنسان •

والذين يقولون بهذه الأفكار ، يعتبرون إفريقيا قارة مظلمة علـى مـر العصـور ، ومعزولة عن العالم ، وبالتالي معزولة عن تـاريخ الإنسـانية • وإنهـا لم تتصـل بالعـالم إلا عندما بدأ الأوربيـون يتعرفـون عليهـا ويكشـفون بعـض أجزائهـا الـتي كـانت مجهولـة

لديهم .

إن هذه النظرة الخاطئة لتاريخ إفريقيا يجب أن تصحح ، ولا يمكن تصحيحها بقراءة الأفكار الجاهزة والخاطئة والشائعة عنها ، والتي كتب معظمُها أوربيون من وجهة نظر استعمارية وعنصرية في معظم الحالات .

والصفحات التالية محاولة لدراسة الدور الكبير الذي قام به الإسلام واللغة العربية في تقدم إفريقيا وتطورها منذ فجر العصور الوسطى . فقد أصبحت هذه البلاد عن طريق الإسلام والعلوم الإسلامية عظيمة الحضارة والتقدم . وسرعان ما شكل الإسلام عادات السكان وطور أحوالهم ، حتى صار مستوى التفكير والثقافة يقارن بنظائره أو يفوقه في الدول المعاصرة في أوروبا المسيحية .

ولذلك ليس من سرف القول : أن العصور التاريخية الزاهرة لبلاد السودان الشرقي والأوسط والغربي تقترن بالإسلام . فبالإسلام كما يقول جوي Gouiuy، يبدأ العصر التاريخي لإفريقيا السوداء .

والإسلام والعلوم الإسلامية ، هي التي أدت إلى قيام الممالك الإفريقية الإسلامية الكبرى : غانا ومالي وصنغي وكانم برنو ، وممالك الهوسا والتكارره والفولانيين أو الفلاتا في بلاد غربي إفريقية (السودان الأوسط والغربي آنذاك) . [ومملكة الفونج أو السلطنة الزرقاء في سنار (على النيل الأزرق) وسلطنة الفور الإسلامية .] وإمبراطورية الزنج الإسلامية أو سلطنة كلوة الإسلامية في ساحل شرقي إفريقيا، هذا بجانب دول الطراز الإسلامي وهي سبع ممالك قامت في منطقة القرن الإفريقي في بلاد الحبشة .

لقد تطلعت بلاد إفريقيا (جنوب الصحراء) إلى البلاد الإسلامية في مكة المكرمة والمدينة المنورة ، ثم من بعد ذلك تطلعت إلى عواصم الخلافة الإسلامية في دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وفاس وقرطبة .

فامتدت الرقعة الإسلامية من فاس إلى تنبكتو ، ومن تنبكتو إلى بلاد السنغال وأرض الهوسا وبلاد الآشانتي ، ومن الفسطاط إلى بلاد النوبة ، وكردفان ودارفور وأرض البجه .

ومن بلاد النوبة في دنقلا ، وأرض البجه على الساحل الغربي للبحر الأحمر إلى أرض الحبشة ، ومن أرض الحبشة استطاع الإسلام أن يتخطى الحواجز الطبيعية الكبرى وهي شلالات النيل وهضبة الحبشة ، ومنطقة البحيرات الكبرى ، وما يكتنفها من أدغال وغابات .

ومن بلاد العرب : الحجاز والعراق وجنوب الجزيرة العربية وصل الإسلام إلى الحبشة وأرض البجه أيضا ، وانتشر المسلمون على طول ساحل شرقي إفريقية الممتد من باب المندب شمالاً حتى سوفالا في روديسيا جنوباً، كما وصل الإسلام إلى كينيا ويوغنده .

ويمكن إلتماس طرق متعددة سلكها الإسلام إلى القارة الإفريقية، ومنابع رئيسية للتأثير الإسلامي في إفريقيا السوداء عامة وهي :

١ - طريق شمال إفريقيا : مصر، برقه، طرابلس، إفريقيا (بلاد تونس)، المغرب الأوسط (الجزائر وجزء من مراكش) بلاد السوس الأقصى إلى مصب السنغال ، ويتبع هذا الطريق طريق بحري بعد نمو البحرية الإسلامية من ثغور الشام ومصر إلى ثغور المغرب الأقصى (مراكش) .

٢ - طريق صحراوي : من واحات مصر الغربية ماراً بجنوب إفريقيا الشمالية، متجهاً صوب الجنوب عبر واحات الصحراء إلى المدن الكبرى في السودان . وأهم المراكز التجارية في غربي إفريقية بلاد غانا ، ومالي ، وجنى ، وتنبكتو (تنبكت) وكنو .. ومن أهم مراكز التجارة في شمالي إفريقية في العصور الوسطى : القيروان وتونس وطرابلس .

٣ - **طريق القوافل** : من بلاد المغرب الأقصى إلى شمال بلاد السودان ولاسيما من جنوب تونس إلى بلاد برنو غرب بحيرة تشاد ، ومن جنوبي الجزائر إلى بلاد شمال نيجيريا، ومن جنوب مراكش إلى مصب السنغال ومنحنى النيجر الأوسط والأعلى .

٤ - **الطريق الرابع** : يسير عبر الصحراء الشرقية ووادي النيل إلى بلاد النوبة وشمال السودان ، وهذا الطريق الذي سلكه الإسلام إلى القارة الإفريقية ، وهو طريق النوبة ودنقلا ، وذلك بعد الفتح الإسلامي لمصر . ولم تكن بلاد السودان بلاداً مجهولة للعرب ، فقد كان نهر النيل الطريق التجاري لهم ، على الرغم من وقوف مملكة النوبة المسيحية حائلا دون هؤلاء الفاتحين والمهاجرين .ولم يكن كل المهاجرين تجاراً ، بل كان فيهم المتنقل سعياً وراء المراعي الخصبة والماء والكلأ ، فوجدوا في فجاج السودان المترامية ما ينشدون ، كما وجدوا في تجارة الرقيق والذهب والجواهر والزمرد ضالتهم المنشودة ، وساعدهم على ذلك أن طبيعة السودان تشابه طبيعة بلادهم .

٥ - **الطريق الخامس** : من جنوب بلاد العرب إلى ساحل شرقي إفريقية وهو طريق بلاد اليمن وحضر موت والبحرين والإحساء إلى الساحل الإفريقي الشرقي ومصوع وبربرة ، حيث أخذت هجرات المسلمين تتدفق على طول الساحل الشرقي الممتد من خليج عدن حتى مدار الجدي على حافة المنطقة التي كان جغرافيو العرب يطلقون عليها اسم (بر الزنج) .

وقد انتشر الإسلام بعد ذلك في ربوع القارة الإفريقية ، فاخترق نطاق الغابات في غربي هذه القارة ، ودخل مع بعض المهاجرين إلى الكونغو ، ومن الشرق نفذ إلى جنوبي السودان وهضبة البحيرات ، وقلب الهضبة الحبشية ، وتخطى الساحل الشرقي في المناطق الداخلية إلى كينيا وتنجانيقا (تنزانيا حالياً) . كما نفذ إلى جنوبي إفريقية ، ومازال ينتشر إلى اليوم .

وهناك نهضة مباركة في نشر الدين الحنيف انبثت بين مسلمي القارة الإفريقية في جميع النواحي، فقد نفضوا عن أنفسهم غبار الماضي، وشاركوا في الحركات التحررية ، وتسلموا أعلى المناصب ، وقاموا بدور ملحوظ في النشاط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، ولم ينسوا تقاليدهم الإسلامية وحرصوا عليها كل الحرص، وتجاوبوا مع إخوانهم في الدين في كافة أرجاء العالم الإسلامي .

وما يؤكد قدم الإسلام في إفريقيا، ما كتبه المؤرخون والجغرافيون العرب والرحالة وغيرهم من كتاب العصور الوسطى ، ولدينا الكثيرمن المصنفات العربية الهامة التي اهتمت بتسجيل المعلومات الهامة عن تاريخ انتشار الإسلام في إفريقيا، ودور العرب الكبير في تطور هذه القارة وتقدمها . وترجع أهمية هذه المصنفات العربية التي كتبها الرواد العرب من مؤرخين وجغرافيين ورحالة ، إلى أنها كتبت في عصور كانت القارة الإفريقية فيها بعيدة عن مجال المعرفة الأوربية . ولذلك اعتبرت المعلومات التي وردت فيها عن إفريقية وتاريخ الإسلام والعرب فيها مادة فريدة وأصيلة في نوعها . فمما لا شك فيه سبق جغرافيو العرب ورحالتهم ومؤرخوهم زملاءهم في العالم الغربي في مجال المعرفة الإفريقية . فالأوربيون لم يركزوا اهتمامهم على القارة الإفريقية ، ومحاولة كشف مجاهلها إلا في أعقاب حركة الكشوف البحرية في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . كما أن كتاباتهم إقتصرت على السواحل ومصبات الأنهار الكبرى حتى أوائل القرن السابع عشر ، وذلك قبل أن تبدأ عمليات الارتياد الأوربي داخل القارة الإفريقية . وعلى العكس من ذلك ظهرت كثير من المعلومات الخاصة بإفريقيا في المصنفات العربية، ابتداء من القرن التاسع الميلادي، إذ يتفق كثير من الباحثين على نضج المعارف الجغرافية وانتعاشها عند العرب حول ذلك الوقت ، بسبب ما أقدموا عليه من ترجمة الكتب اليونانية والرومانية وإضافتهم إلى المعارف الجغرافية القديمة الكثير مما توصلوا إليه نتيجة أسفارهم في آسيا وإفريقيا والمحيط الهندي ، إذ كان للنشاط التجاري أثر كبير في تطور المعرفة الجغرافية بسبب ازدهار التجارة العربية وامتدادها شرقاً إلى الصين ، وشمالاً عبر

أواسط آسيا حتى سواحل البلطيق، وجنوباً إلى الجزء الغربي من المحيط الهندي ، والساحل الشرقي لإفريقيا ، حتى جزيرة مدغشقر ، وغرباً إلى أراضي السودان . ولعل ذلك كان حافزاً لظهور كثير من المصنفات التي تناولت هذه البلاد بالوصف أو المشاهدة . كما أن اتساع العالم الإسلامي كان دافعاً بدوره على وضع المصنفات الجغرافية عما يشمله من مسالك وما يحتويه من ممالك .

والمصنفات العربية التي اهتمت بتسجيل تاريخ العرب والإسلام في إفريقيا سلسلة تكاد تكون متصلة الحلقات ، تبدأ من القرن التاسع الميلادي وتنتهي في القرن الخامس عشر .

وقد أشاد الكثير من المؤرخين والمستشرقين الأوربيين بفضل الرواد العرب من مؤرخين وجغرافيين ورحالة ، إذ أنهم أشادوا في بحوثهم ومؤلفاتهم إلى ما كتبه هؤلاء عن الدول الإسلامية التي ظهرت ، وعلى الأخص في غرب إفريقيا فذكر منهم بوفيل Bovil ، وبالمر Palmar ، ودي لافوس ، كما اعترف غيرهم بعمق المؤثرات العربية والإسلامية في شرق إفريقيا من أمثال جيان Guiuian ، وجبريل فيران Ferrand ، ورينو Reinaud ، وجرنفيل فريمان Freeman وغيرهم كثيرون .

ولابد هنا من إيجاز وذكر بعض المؤرخين والجغرافيين والرحالة من الرواد العرب ومصنفاتهم الهامة ، فمنهم : إبن خرداذبه ، ومؤلفاته التي من أهمها المسالك والممالك (بلاد الزنج) (القرن الثالث الهجري) ، وابن الفقيه الهمداني (٩٠٣م – القرن العاشر) (غانا) (الذهب) ومؤلفه " كتاب البلدان " ، ثم الجغرافي الفارسي أبوعلي بن رسته ، في كتابه : " العلق النفيس " الذي كتبه بعد عشر سنوات من ابن الفقيه (٩١٣م) . ثم يأتي بعد ذلك أبو الحسن المسعودي ، صاحب كتاب : " مروج الذهب ومعادن الجوهر "، وكتاب : " الإشراف والتنبيه " . والأصطخري : " المسالك والممالك "، وابن حوقل ، الذي اشتهر كتابه باسم : " صورة الأرض " ، ومن بعده المقدسي (٣٣٥ هـ – ٩٤٦/٩٤٧م) وكتابه : " أحسن

التقاسيم في معرفة الأقاليم " ، ويعد المقدسي من أعظم الجغرافيين العرب في القرن العاشر الميلادي ، اقتصر في كتاباته على وصف الأقاليم الإسلامية ولم يتعرض لوصف الأقاليم التي يسكنها غير المسلمين • ومن الجغرافيين الذين كتبوا في القرن العاشر الميلادي محمد التاريخي الأندلسي المتوفى عام ٩٧٣م ، ألف كتاباً في وصف إفريقيا والمغرب • وكتابات البكري (أبو عبيد البكري) التي من أهمها : " كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب"، وهو جزء من الكتاب المعروف بالمسالك والممالك • وفي أواخر القرن العاشر الميلادي يبرز لدينا الحسن بن محمد المهلبي ، وهو عالم مصري ، كان يعاصر الخليفة الفاطمي العزيز با لله ، وضع هذا العالم بعد زيارته لبلاد السودان كتاباً في الطرق والمسالك (٩٨٥م) امتاز بأنه أول كتاب عني بوصف أقاليم السودان الغربي وصفاً دقيقاً •

وفي القرن (الرابع الهجري) (الحادي عشر الميلادي) ظهرت كتابات البيروني التي من أهمها : " الآثار الباقية عن القرون الخالية " التي اهتمت اهتماماً واضحاً بالساحل الشرقي لإفريقية •

أما في القرن الثاني عشر فقد ظهرت مصنفات الإدريسي ، وهي من المصنفات العربية الهامة التي اهتمت بإفريقيا ، والإدريسي جغرافي عربي (١١٠٠ - ١١٦٦) أقام في صقلية في الفترة من ١١٣٨ حتى وفاته ١١٦٦ في بلاط الملك روجر الثاني Roger II أحد ملوك النورمان ، وقد عرف كتابه القيم الذي وصفه بكتاب روجر أو الروجاي ، وأسماه: " نزهة المشتاق في اختراق الآفاق " ، وأهمية هذا الكتاب أنه يكاد يكون أول الكتب التي تحدثت عن مدن ساحل شرقي إفريقية وجزره ، كلوه ومالندي وممبسه وسوفالا وغيرها •• وكانت الفترة التي وضع فيها الإدريسي كتابه ، كانت فيها تجارة العرب مع شرقي إفريقيا مزدهرة ازدهاراً كبيراً •

وفي منتصف هذا القرن وضع سراج الدين أبي حفص عمر بن الوردي مصنفاً بعنوان : " خريدة العجائب وفريدة العجائب " •

أما في القرن الثالث عشر فيطالعنا ياقوت الحموي بمعجمه المعروف "معجم البلدان " وفي أواخر القرن يبرز لدينا من المصنفين العرب ابن سعيد (ت ١٢٨٦هـ) وهو مؤلف جغرافي من غرناطة ، درس جغرافية بطليموس ، ووضع موسوعة هامة بجغرافية الأقاليم السبعة ، أورد في كتابه ما عرفه عن سواحل شرقي إفريقية وبعض مدنها كماليندي وممبسه ومقديشو – وأهم ما في كتاب ابن سعيد ما ذكره من أن ملاحاً عربياً يدعى ابن فاطمة دار حول إفريقيا من الغرب إلى الشرق ، كما وصف سواحل السنغال ، وهناك إشارات وردت في أبي الفداء وابن خلدون عما وصفه ابن سعيد لبلاد إفريقيا المختلفة .

وهناك تخطيط البلدان للقزويني ، أو عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات .

أما أبرز المصنفين العرب في القرن الرابع عشر الميلادي فنذكر منهم أبي الفداء ومصنفه المعروف " تقويم البلدان " ، وابن فضل العمري في موسوعته الضخمه " مسالك الابصار " ، وأبو عبد الله الدمشقي في كتابه " نخبة الدهر في عجائب البر والبحر " .

وفي السنوات الأولى من النصف الثاني من القرن الرابع عشر يسترعي إنتباهنا كتاب رحالة عربي يدعى ابن بطوطه سجل فيه رحلاته الكثيرة وأسماه " تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " . (بدأ رحلاته عام ٧٧٥ هـ قاصداً الحج إلى مكة ، وله ثلاث رحلات واسعة النطاق جاب فيها أكثر ما عرف في زمانه من بلاد . شمال افريقيا وشرقيها ، ثم بلاد الشام والهند والصين ، وأجزاء كثيرة من آسيا . بينما طاف في رحلته

الثانية بلاد الأندلس . أما رحلته الثالثة فقدكانت في غرب إفريقيا ومجاهلها ، وقضى في رحلاته هذه ما يقرب من الثلاثين عاماً .

وحدثنا ابن بطوطه بإفاضة عن الإمارات الإسلامية الهامة في شرقي إفريقيا كما ذكر الكثير عن مملكة مالي الإسلامية في غربي إفريقية وأحوال المسلمين فيها وعادات أهلها وتقاليدهم وثقافتهم وإنتاجهم الزراعي ..

وفي نهاية القرن الرابع عشر نجد مؤلف : أبي المحاسن ابن تغري بردي " المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافى " . وقد نقل عنه المقريزي ترجمة لأحد قضاة مدينة لامو في شرقي أفريقيا التقى به في مكة (١٣٨٣م) .

وفي السنوات الأخيرة من القرن الرابع عشر يطالعنا عبد الرحمن بن خلدون الذي أورد لنا حقائق هامة عن السودان الغربي وعلى معلومات دقيقة عن قبائل الطوارق والعرب والبربر في تاريخهم المبكر . وقد ذكر ابن خلدون مدينة تكدا أهم مدينة في سلطنة مالي الإسلامية ، باعتبارها مركزاً هاماً لخط سير القوافل التي كانت تعبرها سنويا في طريقها إلى القاهرة ، مما يوضح الاتصالات التجارية التي كانت قائمة بين مصر ومالي .

وفي أوائل القرن الخامس عشر وضع القلقشندي موسوعته الضخمة " صبح الأعشى في صناعة الإنشاء " ، وفي الجزء الخامس من تلك الموسوعة تحدث القلقشندي عن الممالك الإسلامية في إفريقيا ، وخص بالذكر مملكة مالي ، وأمدنا بصورة جلية لمجتمع مالي ، وأورد ثبتاً لحكامها قبل وبعد اعتناقهم للدين الإسلامي . كما أوضح عمق الصلات التي كانت تربط كثيراً من ممالك السودان الغربي ببلاد العالم الإسلامي .

ومنذ النصف الأول من القرن الخامس عشر تقل المصنفات العربية الهامة التي تعرضت لإفريقيا ، وكما وضح لنا أن هذه المصنفات قد أمدتنا بمعلومات عن بعض أجزاء القارة الإفريقية منذ القرن الثامن حتى القرن الخامس عشر الميلادي ، وهي الفترة التي يمكن أن نسميها بالعهد الإسلامي الذي كان المسلمون في خلاله على

اتصال دون غيرهم بتلك المناطق التي كان لهم فيها النفوذ والسيادة عليها أو السيطرة على تجارتها .

وفي الوقت الذي بدأت فيه المصنفات العربية في التلاشي ، تبدأ المصادر البرتغالية في الظهور ، وأهمها ما كتبه الرحالة البرتغاليون من رواد الاستكشافات البحرية من أمثال فاسكو داجاما Vasco de Gama وكاستنهيدا Castenheida وباربوسا Barbosa وغيرهم كثيرون . ثم تتوالى بعد ذلك المصادر الأوربية عن إفريقيا ، خاصة سجلات الرواد الأوربيين الذين توغلوا في القارة الإفريقية خلال القرن التاسع عشر .

وقد أشاد كثيرون من رواد حركة الكشف والارتياد الأوربي بالدور الذي قام به العرب في التعرف على أجزاء من القارة الإفريقية وسبقهم في ذلك ، بل إن كثيراً من الرحالة الأوربيين قرأوا بإمعان ما كتبه العرب عن المناطق التي ارتادوها ، كما أن هناك من المستشرقين من اهتم بإبراز فضل المدونات العربية في تعريف أوربا بالقارة الإفريقية . وقد أدرك الباحثون الأوربيون منذ وطد الاستعمار الأوربي أقدامه في إفريقيا أهمية التراث العربي الإفريقي ، فنقلوا الكثير من المخطوطات العربية إلى مكتبات بلادهم كالمتحف البريطاني بلندن British Museum Library ، والمكتبة الوطنية بباريس Bibliotheque Nationale وغيرها ، وقد دأبوا على ترجمتها إلى لغاتهم .

كما نشطت الجمعيات والمعاهد الدينية بالدراسات الإفريقية ، وأسهمت في نشر وطبع الكثير منها . كما تهتم الجامعات الإفريقية في الوقت الحاضر بجمع التراث الإفريقي حيث تنهض جامعات غانه ونيجيريا وغينيا والسنغال بجمع وتصنيف ما في حوزتها من مخطوطات عربية ، وقد صدر في السنوات الأخيرة ثبت عام للمخطوطات العربية الموجودة في مكتبتي لاجوس ولوجارد في كادونا بنيجيريا ، كما نهضت جامعة إيبادان Ibadan بالتعريف بالمخطوطات المحلية التي في حوزتها .

وفي شرق إفريقيا توجد الكثير من المخطوطات العربية والسواحيلية ، ولا شك أننا أشد ما نكون احتياجاً لدراسة هذه المخطوطات واستخلاص المادة التاريخية لما قد تقدمه من بعض الجوانب الهامة .

وتجدر الإشارة بصدد ذلك إلى دور جرنفيل فريمان أحد المعنيين بتاريخ شرق إفريقيا قبل العصر البرتغالي . كذلك ينبغي إن ننوه بالجهود التي بذلها كل من ستايقند Stigand و برنس Prins وهتشنز Hichens في دراسة الروايات السواحيلية واحرازهم نجاحاً في العثور على بعض المدونات العربية والسواحيلية لتاريخ لامو و بات، واستخلصوا منها مادة ذات أهمية كبيرة في تطور الإمارات العربية والإسلامية في شرق إفريقيا .

وليس من شك في أن تاريخ العرب والإسلام في إفريقيا يعد من الصفحات المجيدة في التاريخ الإفريقي ، نرجو أن تتاح الظروف للدارسين العرب دراسة الرواد العرب الأوائل الذين أثبتوا بالدليل الواضح والقوي قيام ممالك إسلامية ، سادت ردحاً من الزمن في شرقي القارة ووسطها وغربيها ، وساهمت إسهاماً إيجابياً في نقل الحضارة والفكر الإسلامي إلى تلك المناطق ، وساعدت على نشر التراث الإسلامي ، هذا بالإضافة إلى الدور الذي لعبته في تاريخ المنطقة الاقتصادي والسياسي والاجتماعي .

ولذلك نرى أنه لابد من دراسة هذه المصنفات والمخطوطات العربية الهامة قبل أن تضيع ، وألا يقتصر الدارسون على المصادر الأوربية وحدها ، فإن هذه المصادر كتبت بالنظرة الأوربية ، وكان صعباً عليها أن ترى حسنة من حسنات العرب .

أولا : ممالك غربي إفريقيا :

تاريخ ممالك غرب إفريقيا في العصور الوسطى جزء من التاريخ الوطني لغربي إفريقية عامة ، وتاريخ بلاد السودان الغربية بصفة خاصة ، والعصور الوسطى هي العصور الزاهرة في التاريخ الوطني لغربي إفريقية . فقد قام في هذا الجزء من القارة

عدد من الممالك الإسلامية الإفريقية ، قد عاصر بعضها بعضاً ، غير أن الشهرة والعظمة والسيادة العامة ، فضلاً عن القوة وسعة النفوذ ، تبودلت بين هذه الممالك ، واحدة بعد الأخرى .

وأول هذه الممالك وأقدمها مملكة غانا ، وهذه قامت على أنقاضها مملكة مالي، كما قامت مالي على أنقاض مملكة أخرى هي مملكة الصوصو . وعلى أنقاض مالي نهضت مملكة صنغي . كما جاءت بعد ذلك مملكة كانم والبرنو، وظهرت ممالك التكارير والهوسا والفلاني . والأخيرة وهي دولة الشيخ عثمان بن فورى (دان فوريو) التي قامت في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، وغطت هذه الدولة الإسلامية معظم إقليم بلاد غربي إفريقية ، وعاشت حتى مطلع القرن العشرين حيث جاء المستعمرون الانجليز وقضوا عليها عام ١٩٠٣م .

قامت جميع هذه الممالك فيما هو معروف بالسودان الأوسط والغربي ، وهي تشمل المنطقة الممتدة من بحيرة تشاد شرقاً إلى ساحل المحيط الأطلسي غرباً حتى جزر الرأس الأخضر .

ولقد أطلق العرب كلمة (السودان) وأرادوا بها أصحاب البشرة السوداء بصفة عامة ، تمييزاً لهم عن البيضان . ويشمل هذا المصطلح ما عرف باسم الحزام السوداني الممتد في قلب القارة الإفريقية من الشرق إلى الغرب . غيرأن هذا المصطلح (كلمة السودان) كما عناه العرب ، يكاد ينصب على سكان غربي إفريقية ، لأن للعرب أوصافاً أخرى لأصحاب البشرة السوداء مثل النوبة في وادي النيل (مصر والسودان) ، والزنج في ساحل شرقي إفريقية .

والمشهور أن الزنوج سكنوا هذه المنطقة منذ زمن موغل في القدم . وتتابعت موجات من الهجرات البشرية الأخرى إلى غربي إفريقية من البربر ثم العرب من شمال إفريقية ، ومن سكان وادي النيل ، ومن الشرق عامة . وساعد دخول الجمل إفريقية

منذ القرن الأول الميلادي على الترحال والتنقل بين شمال إفريقيا وغربيها عبر الصحراء الكبرى .

ظل التاريخ القديم لغربي إفريقية غامضاً حتى ظهور الإسلام في تلك المنطقة فكشفت البحوث عن حضارات إفريقية قديمة ، وجدت في بعض أجزاء هذه المنطقة . وأثبتت هذه الكشوف الأثرية على أن حوض النيجر كان مركز نشاط ومدنية منذ أقدم العصور . وارتكزت شهرة هذه المدنيات وعمرانها على أنها وسيطه بين إفريقية الاستوائية والصحراء وشمال إفريقيا . وقامت مدن تجارية يتجمع فيها الذهب والرقيق من الجنوب ، والملح من الصحراء ، والخيل والنسيج والسيوف والسلع الأخرى من شمال إفريقيا وأوروبا . وأدى هذا كله إلى تجاوز شهرة المدن الإفريقية الزاهرة حدود القارة أمثال : كومبي صالح في غانه ، وجني وتنبكت وولاته ، وتكده وونقاره وغيرها في مالي وصنغى . وكلها أصبحت مدن

إسلامية ذات حضارة عظيمة ، فاقت هذه الحضارة حضارة معظم بلاد أوروبا المعاصرة ، إذ كانت حضارة هذه البلاد على صلة وثيقة بموطن أرقى الحضارات الإنسانية ، وهي الحضارة الإسلامية .

مراحل إنتشار الإسلام :

لقد شق الإسلام طريقه إلى بلاد السودان الأوسط والغربي منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) ، وليس ذلك عن طريق الفتح الحربي والضغط والقهر ، ولكن عن طريق التجارة والمصاهرة والاندماج والكتب والمدارس والمساجد ، لأنه يصعب إخضاع وقيادة القبائل الكبيرة عن طريق الحرب ، بدليل أن الإسلام في تلك البلاد ظفر بأقوى القبائل وأشجعها وأكثرها عدداً ، وليس بالمستضعفة منها ، ثم نما وترعرع في المدن الكبيرة التي أقامها المسلمون أو استقروا فيها ، فنمت وكبرت

واشتهرت أمثال (المدن المشار إليها قبل قليل) كومبي صالح ومالي وجني وتنبكت وتكده وونقاره ، وأدى كل ذلك إلى قيام الإمبراطوريات التاريخية الكبرى .

وما يؤكد قدم الإسلام في بلاد غربي إفريقية ، ما ذكره البكري وأحمد بابا مؤرخ صنغي ، من أنه حوالي عام ٦٠هـ / ٦٧٩م ، كان يوجد بالحي الإسلامي بمدينة غانا أو كومبى صالح عاصمة مملكة غانا ، إثنا عشر مسجداً ، وقد زار البكري غانا حوالي عام ١٠٦٦م وذلك قبل سقوطها على أيدي المرابطين بقليل ، وأدرك فيها هذا العدد من المساجد، بجانب عدد من المدارس القرآنية والإسلامية بالقسم الإسلامي ، كذلك أورد البكري أن بني أمية أرسلوا جيشاً في صدر الإسلام لفتح بلاد غربي إفريقية ، وأن ذرية هذا الجيش استقرت في بلاد غانه ، وأن حملة إسلامية كانت موجهة لمطاردة البربر ، وصلت في حركتها إلى بلاد السنغال حوالي عام ١٠٢هـ /٧٢٠م ، وعادت بكميات كبيرة من الذهب . وذكر القلقشندي ، أن أهل غانه أسلموا أول الفتح ، وقد أسلم أحد ملوك غانه في القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) وهو تلوتان بن تكلان (٨٣٧م) ، ويقال أنه شن حرباً دينية ضد جيرانه الوثنيين . ويقال كذلك أن أربعة من جيش عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ / ٧١٧ - ٧٢٠م) هاجروا إلى كانم ، وان بعض بني أمية توجهوا إلى كانم عند محنتهم ببني العباس .

ولا شك أن لهذه التحركات الإسلامية تأثيراً جزئياً في التعريف بالإسلام في تلك البلاد منذ زمن مبكر .

ثم إن أودغست السوننكية (أودغست بفتح الهمزة وسكون الواو وفتح الدال والغين ، وسكون السين والتاء ، وهي مدينة قديمة لا وجود لها اليوم ، وموقعها موريتانيا الحديثة قرب حدودها الجنوبية) نسبة إلى قبائل السوننك الذين كونوا إمبراطورية إسلامية واسعة على حافة الصحراء ، تستغرق مساحتها فيما يقوله

البكري " مسيرة شهرين في مثلها "، قامت بدور كبير في الدعـوة الإسـلامية • وهـي واحة كبيرة في ملتقى طرق بين شمال وغرب إفريقية (مشهورة بالملح) •

نشط سادة هذه المملكة مـن قبـائل لمتونـة البربريـة في نشـر الإسـلام ، جنبـاً إلى جنب مع تنشيط حركة التجارة بين بلاد غرب إفريقية ، وكانت أهـم السـلع المطلوبـة في بلاد غربي إفريقية ، الملح ، يقول ابن حوقـل : وحاجـة ملـوك السـودان إلى ملـوك أودغست ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الإسـلام ، فانـه لا قـوام لهـم إلا به •

ومعنى هذا أن مدينة أودغست الإسلامية ، ساهمت بنصيب وافر قل أو كثر في نشر الإسلام والتعريف به في بلاد السودان قبل عهد المرابطين بنحو قرن •

وفي مطلع القرن الهامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) اسلم الملك الخـامس في سلسلة الملوك من أسـرة الأزواء الحاكمـة في صنفـى ، وهـو زاكـاس ، حـوالي عـام ٤٠٠هـ /١٠٠٩م ، ونما في جاو عاصمة صنفى ، حي إسلامي مثل الحي الذي قام في مدينة كومبى صالح عاصمة غانا •

كذلك أسلم ملك التكرور وارجابي بن رابيس (ت ٤٣٢ / ١٠٤٠م) وكان إسلامه عاملاً أساسيا في نشر الدعوة الإسلامية فيما حوله • وهو صاحب الفضل في إسلام أهل (سلى) من أعمال تكرور • (غامبيا ، السنغال ، وجابون) •

إذن كـانت هـذه الحـوادث الدالـة علـى قـدم الإسـلام بتلـك البـلاد ، نتيجـة الاتصالات المستمرة والمتنوعة خلال الفترة السابقة على منتصف القرن الحادي عشر ، وهي في الواقع المرحلة الأولى من مراحل انتشار الإسلام في غربي إفريقية •

وجاءت المرحلة الثانية على أيدي المرابطين من صنهاجة أكبر قبائل البربر ، ولصنهاجة دولتان بالمغرب هما : دولة بني زيرى ابن مناد الصنهاجي بافريقية ، وهذه ورثوها عن الفاطميين ، ودولة الملثمين بالمغرب الأوسط والأقصى ، وهي التي تعنينا .

قام المرابطون أو الملثمون بنشر الإسلام بين البربر أولاً ، والقطب الروحي لحركتهم هو عبد الله بن ياسين الجزولي المتوفي عام ٤٥١هـ / ١٠٥٩م ، ثم اتجهوا جنوباً إلى بلاد السودان حيث كانت مملكة غانا لا يزال الملوك المعاصرون بها على الوثنية ، رغم انتشار الإسلام فيها ، ورغم أن أحد ملوكها في القرن التاسع الميلادي كان قد اعتنق الإسلام .

فتح المرابطون مدينة أودغست عام ١٠٥٥م ، وكانت خاضعة لغانة يومئذ ، ثم مدينة كوميى صالح عاصمة غانا عام ١٠٧٦م . ومنذ ذلك الوقت صارت مملكة غانا دولة إسلامية ، وانفصلت بعد ذلك عن المرابطين في الشمال بعد ضعف نفوذهم على أثر مقتل أميرهم أبي بكر عمر اللمتوني عام ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م ، واتصلت بالخلافة العباسية مباشرة (ولبس رعاياها العمامة). ولقد اشتهرت قبائل السوننك – أكبر قبائل مملكة غانا – اشتهرت بحماسها ونشاطها في الدعوة الإسلامية فيما بعد . ودور المرابطين هام في نشر الإسلام بغربي إفريقية ، لنشاطهم وحماسهم ، إذ كانوا يرسلون الدعاة والعلماء بين القبائل الوثنية ، وبفضل حركتهم ازداد انتشار الإسلام ، كما ازداد الاتصال التجاري والثقافي بالبلاد الإسلامية عامة ، حتى الأندلس بأوروبا ، والمرابطون هم الذين أنشأوا مدينة تنبكت وكانت من قبل قرية صغيرة .

أما المرحلة الثالثة من مراحل انتشار الإسلام في غربي إفريقية ، فكانت على أيدي ملوك مملكة مالي الإسلامية ، فقد كان الماندنجو (أكبر قبائل مالي) ، أكثر تحمساً للإسلام والدعوة له . ومن أشهر ملوك مالي الذين بذلوا جهوداً جبارة في نشر الإسلام والدعوة له الملك منسى موسى (١٣٠٧ –١٣٣٢) الذي يعتبر من أعظم ملوك هذه المملكة التي بلغت في عهده أوج عزها ومجدها . وقد استطاع قواده أن

يفتحوا ولاية تنبكت ون يضموا جوا في أواسط النيجر . وكان لزيارة منسى موسى للأراضي المقدسة دوي كبير في مصر وبلاد العرب ، فقد قيل أن حاشيته ضمت خمسمائة عبد ، وذكر أنه وزع كميات كبيرة من الذهب في القاهرة وهو في طريقه للحج ، حتى أنها أثرت على سعر العملة فانخفض ، ويذكر عنه أيضا أنه كان يبني مسجداً في كل مدينة تدركه فيها صلاة الجمعة . وذكر ابن بطوطة عند زيارته لمالي عام ١٣٥٣ أن أهل مالي يجعلون لأولادهم القيود إذا قصر أحدهم في حفظ القرآن ، ولا تفك قيوده إلا بعد أن يحفظ القرآن .

ثم جاء الدور الرابع ، أو المرحلة الرابعة من مراحل انتشار الإسلام على أيدي ملوك مملكة صنغى (Songhay) الإسلامية ، وهي التي ورثت مالي في تلك البقاع ، فقد عملت صنغى منذ أن أسلم أول ملوكها زاكاس عام ١٠٠٩ م على نشر الإسلام بين الوثنيين ، كما كان الشأن بالنسبة لمالي ، وفي زمن ملكها سنى على (ت ١٤٩٢) ازداد انتشار الإسلام حتى وصل إلى فروع النيجر الشرقية . كما أن أسرة الأساكي التي تبدأ بالأسكيا الكبير (ت ١٥٢٩) قامت بأعظم دور في نشر الاسلام . وبلغت صنغى زمن الأسكيا محمد أو أسكيا الكبير أقصى اتساعها وعظمتها ، حتى ظفر بلقب " الامام " ولقب " أمير المؤمنين " .

يضم إلى هذه الأدوار ما قامت به إمبراطورية البرنو ، والمشهور أن الإسلام وصل إلى كانم من مصر مباشرة ، ومن أشهر دعاة الإسلام في كانم محمد بن ماني في القرن الحادي عشر، واشتهر هايات برنو بحماسهم للدعوة الإسلامية بين القبائل الوثنية .وذكرأن أول ملوك كانم من المسلمين تولى الحكم حوالي نهاية القرن الحادي عشر أو النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي . وعند نهاية القرن الحادي عشر بدأ انتشار الإسلام في مناطق السودان الأوسط بعد أن اعتنقته عائلة كانم .

أدى دخول الإسلام في بلاد غربي إفريقية – كما سبق القول – في فترة العصور الوسطى ، أدى إلى ازدهار الممالك الإفريقية ، لأن عنصر الكتابة والتدوين

وظهور الدواوين في هذه الممالك ، أمكن من خلق جهاز إداري ممتاز على غرار مثيلاته في البلاد الإسلامية . والروح والتعاليم الإسلامية رفعت المستويات الإنسانية والأخلاقية . وارتبطت هذه المنطقة ثقافياً بمراكز الثقافة والحضارة في بلاد العالم الإسلامي عامة ، وبلاد شمال إفريقيا خاصة .

أما آخر مراحل انتشار الإسلام في بلاد غربي إفريقية ، فقد كانت في العصر الحديث عند نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر في أرض الهوسا (نيجيريا) على يد قبائل الفلاني التي اشتد حماسها لنشر الإسلام زمن ازدهار دولتهم الخلافة الصكتية في القرن التاسع عشر والتي أسسها الشيخ عثمان دان فوديو عام ١٨٠٤ واستمرت هذه الخلافة في الازدهار حتى قضى عليها المستعمرون الانجليز في مطلع القرن العشرين عام ١٩٠٣م .

ثانيا : شرق إفريقيا :

بلاد اليمن وعمان وحضر موت والبحرين والاحساء هي المناطق التي بدأت تتدفق منها جماعات العرب منذ فجر التاريخ إلى الساحل الإفريقي الشرقي ، وهي حافة المنطقة التي كان جغرافيو العرب يطلقون عليها اسم " بر الزنج " وتبدأ من مصوع حتى سوفالا جنوبي نهر الزمبيزي ، وقد تمكن عرب جنوبي الجزيرة العربية وخاصة عرب عمان من تأسيس المراكز التجارية في سهولة ويسر ، بعد أن بسطوا سيطرتهم وحلوا محل الفينيقيين والإفريقيين القدماء في الاستقرار .

وفي العصر الإسلامي الأول (صدر الإسلام) وصلت هجرات عربية إسلامية إلى ساحل شرقي إفريقية لأسباب دينية وسياسية ، فضلاً عن العامل الاقتصادي الذي كان بارزاً في معظم الهجرات ، فهناك هجرة العرب المسلمين إلى الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم بعد أن نصح الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه بالهجرة إلى الحبشة] ونظراً لمعرفة العرب بأرض الحبشة خلال الاتصالات التجارية القديمة ، ومن

الواضح أن شرقي إفريقية عرف الإسلام في حياة الرسول صلى ا لله عليه وسلم ، وتذكر الروايات المختلفة أن جعفر بن أبي طالب حينما خرج من مكة إلى الحبشة مهاجراً أسس في طريقه مراكز للدعوة في ارتيريا والصومال بمساعدة الجاليات العربية المستوطنة هناك ، وكان ذلك قبل هجرة الرسول صلى ا لله عليه وسلم من مكة إلى المدينة بنحو عشر سنوات ، فيذكر الصوماليون تبعاً لذلك أنهم أسبق في الإسلام من المدينة المنورة ، ومهما يكن من أمر فإن الصوماليين صاروا فيما بعد من أكبر المتحمسين لنشر الدعوة الإسلامية في تلك الجهات ، وأصبحت البلاد الإسلامية خالصة .

توافدت بعد ذلك إلى سواحل شرقي إفريقية مجموعات ضخمة من دعاة الإسلام من عرب وفرس وغيرهم لإنشاء مراكز إسلامية ثابتة .

فذكرت بعض الروايات أن هنالك هجرات عربية حدثت عقب مقتل الخليفة الثالث عثمان بن عفان ، وفي أثناء الاضطرابات التي سادت أثناء خلافة علي بن أبي طالب .

وفي عصر الدولة الأموية هاجرت جماعات عربية في أيام عبد الملك بن مروان (أثناء فترة الاضطرابات أيضاً) ، من أهمها هجرة سليمان وسعيد إبني عباد الجلندي من قبيلة الأزد في عمان (سياسة عبد الملك القبلية) اللذين تمكنا من الفرار إلى ساحل شرقي إفريقية حيث أسسا لهما دولة إسلامية في منطقة أرخبيل لامو .

كذلك هاجر الزيود إلى ساحل شرقي إفريقية في خلافة هشام بن عبد الملك وذلك عقب مقتل زعيمهم زيد بن علي عام ١٢٢هـ / ٧٤٠م ، واستقرت هذه الجماعة بمنطقة بنادر على الساحل الصومالي بالقرب من مقديشو .

وفي خلال العصر العباسي الثاني هاجرت إلى ساحل شرقي إفريقية مجموعات عربية ضخمة من الاحساء عاصمة دولة القرامطة آنذاك الذين نشروا الرعب في أنحاء

الجزيرة العربية والعراق وسوريا ، وقد هاجر الإخوة السبعة وجماعتهم في حوالي عام ٣٠١هـ / ٩١٣م وذلك فراراً من أعمال القرامطة الوحشية ضد المسلمين في كل مكان . وفي فترة وجيزة استولى الإخوة السبعة على كل ساحل بنادر ، وامتد نفوذهم حتى جنوبي ممبسه ، وربما وصلوا إلى جزيرة مدغشقر . ولم تمض فترة طويلة على وجودهم حتى أصبح الساحل شافعياً على المذهب السني ، بعد أن اصطدم الأخوة السبعة بالزيود الشيعة ، الذين اضطروا إلى الانسحاب إلى الداخل ، ولا يزال المذهب الشافعي هو السائد في بلاد شرقي إفريقية إلى اليوم .

وقد تمكن الإخوة السبعة من تكوين دولة إسلامية قوية جعلوا مقديشو عاصمة لها ، استمرت هذه الدولة حتى جاء الشيرازيون الفرس وقضوا عليها ، وأسسوا سلطنة الزنج السلامية وجعلوا كلوه عاصمة لها (تنزانيا) .

كانت سلطنة الزنج الإسلامية التي أسسها علي بن حسن الشيرازي عام ٩٧٥م أشهر الممالك الإسلامية التي قامت في ساحل شرقي أفريقية في العصور الوسطى ، قدم ملوكها خدمات جليلة للإسلام ، الذي انتشر بسرعة مذهلة بين قبائل البانتو والبشمن والأقزام وغيرهم . واستمرت هذه الدولة في الازدهار قرابة الأربعة قرون حين جاء البرتغاليون بقيادة فاسكو دي جاما ، بعد أن اكتشفوا راس الرجاء الصالح ، ثم قضوا على سلطنة الزنج الإسلامية ، التي بذل ملوكها جهوداً كبيرة في نشر الإسلام بين القبائل الأفريقية الوثنية في الساحل والجزر المحيطة مثل جزر مافيا وبمبا وزنجبار ، كما كان لهم الفضل في نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية بين بعض قبائل الداخل الأفريقي مثل قبيلة شانقا وغيرها .

وفي منطقة القرن الأفريقي (بالحبشة) قامت سبع ممالك إسلامية (أوفات ، دوارو ، ارابيني ، هدية ، شرخا ، بالي ودارة ، ، واشتهرت هذه الممالك باسم دولة الطراز الإسلامي، لأنها على جانب البحر كالطراز له (كما ذكر المقريزي) ، وتسمى أيضا بممالك القرن الافريقي . أدت هذه الممالك دوراً كبيراً في نشر الإسلام

بين الارتيريين والأحباش والدناقل، وارتبطت هذه الممالك ارتباطاً قوياً بالعالم الإسلامي الخارجي ، وتوطدت صلتها به عن طريق التجارة والحج وانتقال طلاب العلم للدراسة في المدينة المنورة وبغداد ودمشق والقاهرة ، وصار لرواد الثقافة الإسلامية أروقة خاصة بهذه المراكز . وأقوى هذه الإمارات مملكةأوفات الإسلامية التي تزعمت حركة الجهاد الإسلامي ضد الحبشة المسيحية حتى ظهور البرتغاليين والعثمانيين في البحار العربية حيث انتقل مسرح الحروب الصليبية إلى شرقي أفريقية .(إذ كر عرب عمان بقيادة السيد السعيد (١٨٠٦ - ١٨٥٦) الذي قضى على البرتغاليين وأعماهم الوحشية وأتاح للإسلام فرصة الانتشار دون عقبات (حتى الاستعمار الحديث) .

وفيما يتعلق بوسائل انتشار الإسلام في إفريقيا ، فقد كان الطابع الأساسي لنشر الدعوة الإسلامية هو السلم والإقناع ، مما جعل الأفريقيين يقبلون على اعتناق الإسلام اقبالاً شديداً ، فلم يشهر حملة لواء الدعوة الإسلامية السيف إلا في الحالات الدفاعية ، ونشط الدعاة المسلمون كما نشط التجار في نشر الإسلام ، والتفوا حول الملوك ، وحببوا الدين إليهم ، وشرحوا لهم أحكامه ، فمثلاً كان في حاشية عدد من ملوك غانا ومالي عدد كبير من العلماء ، كذلك كان الحال في سلطنة كلوة ، وخاصة في عهد السلطان أبي المواهب . (ابن بطوطة) .

ومما ساعد على قبول الإسلام ذلك الاندماج وتلك المصاهرة التي تمت بين التجار والدعاة المسلمين من العرب والبربر من جهة ، وبين الأفريقيين من جهة أخرى، [وبين العرب والنوبة في السودان] وبين العرب والفرس من جهة ، والأفارقة كالبانتو في شرقي إفريقية من جهة أخرى . وبهذه الطريقة الهادئة دخل الزعماء ورؤساء القبائل والعشائر الأفريقية في الإسلام ، وتحمسوا بدورهم لنشر الدعوة له بين الجيران الوثنيين .

وفوق كل ذلك احترم الدعاة المسلمون العادات والتقاليد ولم يحتقروها ، وهـذا أحد أسباب نجاحهم ، ووضح أثر الإسـلام عنـد مختلف القبـائل مـن ناحيـة الإصـلاح والتهذيب والتقريب بين القبائل المتنافرة ، كذلك كان لعلماء الديـن الإسـلامي مكانـة سامية في نظر شعوب تلك البلاد ، ووضع الإسلام الأسس والمبادئ العامة الـتي تمجـد المثـل العليـا والآداب الرفيعـة ، ووضـع أسـاس الحريـة والإخـاء والمسـاواة والتسـامح الديني .

ومما هو جدير بالملاحظة أن نشاط الدعاة والتجار والمعلمين كان يقوم في الغالب على الإرشاد ، ويعتمد على انتشار التعليم الإسلامي ، واستخدام كل وسائل الترغيب في نشر الدعوة إلى الإسلام رغبة في نشر الدين ابتغـاء مرضـاة الله وحسـن الثـواب في الآخرة وهداية الناس ، وذلك بتأسيس المساجد وفتـح المـدارس والمصـاهرة مـع أهـالي البلاد التي يتردد عليها المسـلمون أو يسـتوطنوها ، و بشـراء العبيـد لتعليمهـم مبـادئ الدين الحنيف .

اللغة العربيـــــة

وأما اللغة العربية ، فالواضح أن الدعوة الإسلامية في أفريقيا ، كما في غيرها من البلاد الإسلامية قد ارتبطت باللغة العربية لغة القرآن الكريم والعلوم الإسـلامية وسـار الإسلام واللغة العربية جنباً إلى جنب مع الجهـاد في سـبيل نشـر الديـن وتوسـيع رقعـة البلاد الإسلامية ، فضلاً عن تنشيط الحركة التجارية ، واحترم المسـلم الأفريقـي اللغـة العربية احتراماً كبيراً ، لأنهـا لغـة القـرآن الكريـم ، فبهـا يـؤدي صلاتـه ، وبهـا يتلـو القرآن، وبواسطتها يلم بعلوم الدين .

وساعد على انتشار اللغـة العربيـة والتمسـك بهـا ، فضـلاً عـن الجـانب الديـني المرتبط بها، أن الكثير من الشعوب الأفريقية في السودان الأوسط والغربي قـد ادعـت الأصول الشرقية ، لقد ادعى ملوك مالي والتكرور وصنفى والبرنو والهوسا والفولانيين

والفونج وغيرهم ، أنهم انحدروا أصلا من العرب ، وأن أسلافهم الأوائل جاءوا من الشرق .

ومن العوامل التي ساعدت على انتشار اللغة العربية في أفريقية الإسلامية هجرة القبائل إلي تلك البلاد واستقرارها فيها ، وهذه الهجرات قديمة وسابقة على دخول الإسلام ، وازدادت بانتشار الإسلام .ثم إن مصاهرة العرب والبربر والفرس مع القبائل الأفريقية ساعد على انتشار اللغة العربية بجانب الإسلام ، مثل قبائل شوا في غربي أفريقية والسواحيلي في شرقي إفريقية ، وكلها ناتجة عن امتزاج ومصاهرة العرب بالأفارقة .

وقد تركت اللغة العربية آثارها في عدد من اللغات المحلية لدرجة كبيرة ، وظهر هذا الأثر واضحاً في لغتي الهوسا وصنفى في غربي إفريقية ، واللغة السواحيلية في شرقي أفريقية(ويوجد في هذه اللغات الكثير من الكلمات ذات الأصول العربية ، بل إن الحروف العربية استخدمت في كتابة لغة الهوسا منذ زمن مبكر .

أما عن الأحوال العامة في ممالك أفريقيا الإسلامية ، فهناك تشابه كبير في نظم الحكم والأحوال الاجتماعية والاقتصادية . ووجدت في المدن والإمارات بعض الألقاب والوظائف مثل القاضي والمحتسب والكاتب ، كما وجدت وظائف ولاية النظر في المظالم وولاية الشرطة وغيرها من المظاهر الإسلامية ، وبجانب الملوك والسلاطين هناك مجموعة من الوزراء والأمراء ويذكر اسم السلطان أو الملك في خطبة الجمعة ، والقاضي أيضاً شخصية مهمة في الممالك الإسلامية في أفريقيا ، ويلي السلطان مباشرة في المكانة الرفيعة . ويشتهر القضاة في تلك البلاد بالدقة والتبحر في العلم وفهم القوانين التي يطبقونها ، ولديهم مكتبات حافلة بالمؤلفات الفقهية ، وذكرابن بطوطة عند زيارته لمقديشو أن القاضي يتمتع بمرتبة سامية ، وكان القضاة في ساحل شرقي أفريقية يعملون بمقتضى نصوص المذهب الشافعي وتعاليمه ، وكان

المذهب السائد في دولة الطراز الإسلامي بالحبشة هو المذهب الحنفي ، باستثناء مملكة أوفات ، فإن أغلبية السكان على الشافعية مع وجود بعض الأحناف .

أما في بعض الممالك الإفريقية الغربية ، فكان القضاة يطبقون الشريعة الإسلامية على مذهب الأمام مالك . ففي مالي جلب الملوك الفقهاء والقضاة من مذهب الإمام مالك ، ويوجد في كانم وبرنو بعض الشافعية مما يؤكد النبع المصري في إسلام كانم .

واهتم الملوك أيضاً بتنظيم الإدارة المالية على آن تطابق الشرع الإسلامي، ومصادرها متعددة وهي الزكاة والجزية والغنيمة والفئ والخراج .

وحظيت علوم الدين بنصيب وافر من العناية والخدمة في ممالك أفريقية المختلفة، وقد عني أهلها بكتاب ا لله حفظاً وتجويداً وتفسيراً . فقد كان حظهم منها كبيراً ، وكان نصيب اللغة العربية جزيلاً وافراً . وازدهرت العربية وعلومها على أيديهم ، وتركت أثرها القوي في كنو وتنبكتو وصكت ، ومقديشو وممبسه وكلوه ولامو وبراوة . وصرت براوة بالقرب من مقديشو كعبة المعرفة ، ويأتي إليها الطلاب من الأماكن النائية لشهرة علمائها وتفوقهم في الدين .

لقد نفث الإسلام على الجماعات الإسلامية الأفريقية قوة روحية جديدة ، كما أسبغت العقيدة الإسلامية على معتنقيها احتراماً وتقديراً بين مواطنيهم . أما المستعمر الأوربي فقد جاء بالمسيحية إلى الساحل الإفريقي باعتباره عبداً ، أو على الأقل بوصفه خاضعاً محكوماً . ولقد دهمهم المستعمرون وأجبروهم على اعتناق المسيحية بمختلف الوسائل والإغراء ، واستولوا على بلادهم بالعنف والقهر والتفرقة ، وانزلوهم منزلة دون منازل الانسانية . لذلك بات أعظم المثقفين من الزنوج يتطلعون إلى اليوم الذي يزول فيه أثر لندن وباريس ولشبونة ، وقد زال حديثاً إلا القليل . وبينما شعرالافريقي المسلم أن الاسلام لم يقطعه عن ماضيه أو عن مجتمعه ، نجد الاستعمار الأوربي ، قد جعل الأفريقي المسيحي حائراً ضائعاً، فلا هو قريب من

مجتمعه، ولا هو مرضي عنه من الأوربي المستعمر لكي ينتسب إلى الحضارة الأوربية المسيحية، وذلك على عكس الإسلام الذي اعترف منذ أول وهلة بالمساواة التامة، وكفل للمسلم جميع حقوقه ، دون نظر إلى لون أو جنس .

لقد عمل الإسلام على تطوير بلاد الزنوج ولا يزال يعمل ، وكما ذكر أحد الرحالة الأوربيين ، فإن الإسلام هو الديانة السامية الوحيدة التي أدت إلى تقدم وتطور قارة إفريقية الواسعة .

لقد ظهرت المسيحية قبل الإسلام بنحو خمسة قرون ، ومع ذلك كان الإسلام اسبق في الوصول إلى بلاد غربي إفريقية ووسطها وشرقيها . ورغم محاولات الاستعمار الأوربي الحديث ، إلا أنه لم يستطع أن يحول قبيلة بأكملها إلى المسيحية بوسائله المختلفة . فمن غامبيا إلى جابون مثلاً ، ظل الكثير من الوطنيين على عقائدهم القديمة ووسائل حياتهم البدائية رغم اتصالهم بالمسيحية الغربية نحو ثلاثة قرون . بينما نجد على طول الساحل من السنغال إلى لاغوس ، لا توجد مدينة هامة إلا وبها مسجد على الأقل ، فضلاً عن عدد كبير من المسلمين يعيش جنباً إلى جنب مع المسيحيين والمبشرين . ومن العجيب أن نسبة المسلمين في المنطقة الساحلية لغرب إفريقية لم تزد إلا في عهد الاستعمار ، وخلال نشاط البعثات التبشيرية الغربية .

أما أثر العقيدة الإسلامية في مسلمي بلاد السودان الأوسط والغربي ، فهو عميق حتى في المظهر . فقد اهتم المسلمون بحفظ القرآن ، وقد شهد ابن بطوطة في رحلته لبعض بلاد مالي في القرن الرابع عشر الأطفال المقيدين من أجل حفظ القرآن حين دخل يوم عيد الفطر على قاضي مالي ، فوجد أولاده في القيود ، ولما طلب تسريحهم ، قال القاضي : لا أفعل حتى يحفظوا القرآن .

ويمكن القول أن الإسلام وجد تربة خصبة في إفريقيا ، ويزداد انتشاره في العصر الحاضر ، ولعل من اكبر العوامل زوال الاستعمار ، ونشاط الصلات التي تقوى يوماً

بعد يوم بين تلك البلاد وبلاد العالم الإسلامي .

أما عن أثر الإسلام الاجتماعي والاقتصادي فالثابت أنه كان لتحول الإفريقيين إلى الإسلام أثر بعيد في حياتهم الاجتماعية ، لأن الإسلام لا يقيم وزنا للون أو الجنس ، وانما يقوم على مجتمع ديني يسوده الإخاء والمساواة والحضارة الإسلامية التي تفوق حضارة الزنوج، وتكفل لهم التخلي عن كثير من عاداتهم وطباعهم البربرية ، وتضمن لهم الترقي في مضمار الحضارة عقلياً وخلقياً ومادياً ، والإسلام يقوي الشعور بالوحدة ويؤلف بين قلوب أفراد المجتمع، ولا يقيم وزناً لحواجز اللون أو الجنس بل يمنح الجميع أخوة إسلامية مشتركة . فالإسلام يقوي من الشعور بوجود الله، وبوحدانيته ، وبقوته ، وبتبعية الفرد لهذا الإله ، واحكام صلته به عن طريق صلوات يقوم بها كل يوم .

ومن مظاهر الإسلام أنه يحث على الصبر وضبط النفس والشعور بالعزة والكرامة . كما أن تأثير الشريعة الإسلامية في الزنوج المسلمين أشد وضوحاً في العقيدة منه في الأحوال الشخصية والصلات الأسرية ، فمثلاً عندما يدخل بعض أفراد القبيلة الدين الإسلامي – كما حدث في كينيا مثلاً – فانهم يعتزلون حياة القبيلة، ولا يشاركون في طقوسها ، بل يتركون أرضها ويهاجرون إلى السواحل حيث يعيشون مع سائر المسلمين ، ويتزوجون أمام القاضي ، ويطبقون أحكام الشريعة الإسلامية في المواريث ، وعندما يعتنق الشعب بأسره الدين الإسلامي – كما فعل الصوماليون – تحل الشريعة الإسلامية محل التقاليد القديمة إلى حد بعيد، وتصبح هذه الشريعة عامل توحيد بين التقاليد المتعددة للقبائل الصومالية .

لقد أدخل الإسلام فن القراءة والكتابة ، وحرم الخمر وأكل لحوم البشر ، والأخذ بالثأر ، وغير ذلك من العادات الوحشية ، وأتاح للزنجي الأفريقي الفرصة لأن يصبح مواطناً حراً في عالم حر .

وكان الإسلام ذا أثر كبير في الحياة الثقافية والتربوية في أفريقية ، والمعروف أن أسس الثقافة هي طريقة التعبير أي اللغة ، واللغة العربية اختلطت باللهجات الأفريقية مثل الهوسا ولغة البانتو والفلاني وغيرها عشرات القرون ٠وكما سبق القول فإن المسلم الأفريقي قد احترم اللغة العربية احتراماً يقرب من التقديس ، وحتى إذا صعب على الأفريقي المسلم فهم اللغة العربية وألفاظها ومدلولاتها فهماً عميقاً تاماً ، فإن مجرد لفظها يحمل جرساً فيه جمال ورقة وفخامة تجذبه إليها ٠ ومثل هذه الخصائص لم يجدها في اللغات الأوربية التي عرفها فيما بعد ٠

وقد سبق القول أيضاً أن الشعوب الأفريقية قد ادعت الأصول العربية ، وإذا كان هذا الادعاء لم يظهر أو لم يعرف إلا بعد انتشار الإسلام واللغة العربية في تلك البلاد ، فهذا دليل على حرص هذه الشعوب على التمسك بكل ما هو عربي ، لأن الإسلام جاء أصلا من الجزيرة العربية وعلى يد العرب ، كما يدل في نفس الوقت على مدى الترحيب والرضى والقبول الذي ظفر به الإسلام ولغته ٠

لقد ذكر ملوك مالي والتكرور أنهم ينتسبون إلى النسب العلوي ، وادعى مايات كانم وبرنو النسب إلى سيف بن ذي يزن الحميري ، كما ادعى سكان برنو في تشاد (وقبائل الشوا) الأصول اليمنية وخاصة قبائل الكانوري ٠ والمشهور أن قبائل الكافوري خليط من العرب والبربر، ويقال أن مملكة كانم الأولى قد تأسست على أيدي العرب ٠ وكذلك الشأن بالنسبة لمملكة وداي الإسلامية ٠ كذلك ادعى البولالا وهم فرع من الأسرة الحاكمة في برنو، أن لهم أصولا عربية من اليمن ٠ كما قال الهوسا أن أصولهم جاءت من مكة ٠ وذكر الفونج مؤسسو السلطنة الزرقاء في سنار أنهم أبناء مروان محمد آخر خلفاء الدولة الأموية ٠ كما ذكر الشيخ عثمان دان فوديو مؤسس الخلافة الصكتية في نيجيريا في القرن ١٩ وقبائل الفولاني أنهم أحفاد عقبة بن نافع ٠ وذكر سلاطين أوفات الإسلامية في القرن الإفريقي أنهم من سلالة عقيل بن أبي طالب ٠

ومهما يكن في هذه الادعاءات من بعض الأساطير ، فإن آثارها المحققة هي سرعة انتشار اللغة العربية ، فضلاً عن الاعتزاز بها ، والفخر بالانتساب إليها وإلى مصادرها .

وهكذا وجدت اللغة العربية تربة خصبة في إفريقيا في خلال العصور الوسطى، بل ظلت كذلك حتى عصر الاستعمار الأوربي ، فعندما وصل الرحالة الإنجليزي فرانسيس مور عام ١٧٣١ إلى غامبيا البريطانية ، وجد معظم أهلها يتكلم اللغة العربية – كما وجد القرآن شريعتهم . ومما أثار دهشته أنه وجد إلمامهم باللغة العربية يفوق إلمام أهل أوروبا الوسيطة باللغة اللاتينية . وجد كذلك أن الكثير يتكلم اللغة العربية بالإضافة إلى لغته الأصلية المحلية، كذلك وجد مانجو بارك Mango Bark في أوائل القرن التاسع عشر ، عددا كبيراً من المدارس التي تعلم القرآن الكريم واللغة العربية . ففي سيراليون وهي تسمية برتغالية ، وجد الإنجليز جماعات من القبائل الأفريقية تتقن اللغة العربية ، وتعنى بإنشاء المدارس الخاصة لتعليم القرآن ولغته .

ورغم الجهود التي بذلها الاستعمار الأوربي للقضاء على اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية في أفريقية ، وتحويل أنظار الإفريقيين عن مكة والمدينة وتونس والقاهرة وفاس ، فإنه فشل فشلاً ذريعاً ، إذ كان المسلمون والمستعربون من الأفريقيين يصرون على إنشاء مدارسهم ومؤسساتهم الثقافية في المناطق الوثنية النائية ، كما في ساحل العاج ونيجيريا ، من أجل هذا لم يخطئ توماس ارنولد حين قال منصفاً: " وبلغت العربية وهي لغة القرآن درجة عظيمة من الزيوع والانتشار ، حتى غدت لغة تخاطب بين قبائل نصف القارة السوداء ." ثم يضيف بقوله :" وهذا تقدم كبير في الحضارة الإفريقية " .

ولايزال إلى اليوم آلاف الكلمات العربية المستخدمة في إفريقيا في شتى مظاهر

الحياة، وفي الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية ، وفي الحرب والسياسة ونظم الحكم والحياة الاجتماعية ، وحتى في أسماء النباتات والمدن والحيوان والأعلام • ويقترن العهد الزاهر للغة العربية والعلوم العربية الإسلامية في إفريقيا بعهود الممالك الأفريقية الإسلامية • فقد كانت اللغة العربية اللغة الرسمية السائدة ، واستخدمت في شتى الأغراض وأوقت بها • واستخدمت اللغة العربية في مجال الحكم والإدارة والقضاء • ثم هي لغة المكاتبات الرسمية بين هذه الدول وبين العالم الإسلامي الخارجي •

لذلك نخلص إلى القول أن أفريقيا خلال العصور الوسطى في ظل الممالك الإسلامية ، تمتعت بحضارة إسلامية خالصة ، ونظام إسلامي سليم •

هذا الموضوع عن تاريخ الأقليات المسلمة في إفريقيا وهذه الأقليات ، عاشت ومازالت تعيش في مناطق حاول المستعمر جاهداً أن لا تكون فيها أغلبية مسلمة ، منذ أن حاول المسلمون تخطي الموانع الطبيعية في مناطق الغابات وهضاب البحيرات وقلب الهضبة الحبشية ، كما تخطى الإسلام الساحل الشرقي في المناطق الداخلية إلى كينيا وتنجانيقا (تنزانيا حاليا) ، كما نفذ إلى جنوبي إفريقية ، وعبر المسلمون في العصور الوسطى ، من بلاد غربي إفريقية التي أصبحت هي الأخرى بلاداً إسلامية خالصة ، عبروا إلى الكمرون وافريقيا الوسطى وسيراليون وأنجولا ومازال الإسلام ينتشر حتى اليوم ، رغم محاولات الاستعمار وحركات التبشير التي أجبرت شعوب القارة التي لم يستطع الإسلام أن يصلها مبكراً – للعوائق السالفة الذكر – فحاول الاستعمار ورجال الكنيسة إجبار هذه الشعور على اعتناق المسيحية بالعسف والقهر والتفرقة ، ورغم ذلك حافظت على عقيدتها الإسلامية وظلت تقاوم محاولات التبشير المسيحي ، رغم أنها أقلية إسلامية مستضعفة في مناطق أكثرية مسيحية ، أو وثنية ، تعاني هي الأخرى وطأة المستعمر وجبروته •

لذلك نعالج في هذا البحث تاريخ الأقليات الإسلامية في إفريقيا وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية .